الخطاب الوطنى

الذى كان سيلقيه الأستاذ الرئيس فى المؤتمر

الوطنى لمصر الفتاة فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٧

••••

الله أكبر الله أكبر ... فتح ونصر وأعز من صبر وأذل كل من بغى وفجر... الله أكبر الله أكبر جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

منذ أربعة عشر قرناً تقريباً قام سيدنا محمد فى بطحاء مكة يدعو قريشا للحق والنور والإيمان وتحطيم الأوثان وعبادة الله الواحد القهار ، فرد عليه قومه بالأذى والاضطهاد والحرب بالليل والنهار . ثلاثة عشر عاما قضاها ، محمد عليه الصلاة والسلام وهو يحارب جيوش الكفر والطغيان ، ولاسلاح له إلا نور الحق واليقين الذى امتلأ به قلبه وفاضت به نفسه ، وبعد هذه السنوات الطوال اضطر الرسول الكريم أن ينجو بنفسه وبدينه من مكة وأن يهاجر إلى المدينة ، وهناك وجد الدولة ووجد السلطان الذى راح يصاول به جيوش مكة ... ولقد ظن فى بادىء الأمر أن محمدا قد قضى على نفسه بسلوك هذا السبيل ، ولكن لم تكد تمضى بضع سنوات على خروجه من مكة حتى عاد إليها فاتحاً واستسلمت المدينة الكبيرة بدون حرب أو قتال وخرجت قريش كلها تستقبل النبى المنتصر تهلل وتكبر وتسبح بجلال الله الواحد الأحد . وفى وسط هذا البحر الزاخر من الآدميين الذين انقلبوا بنعمة الله إخوانا . دخل محمد عليه الصلاة والسلام إلى الكعبة وحطم بيديه الأوثان التى طالت عبادة الناس لها خوفا منها وفزعاً من بطشها وسطوتها ولم يكن للرسول من مقالة فى هذا اليوم إلا هذه الآية الخالدة .. « قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

عهد الأصنام

لم أستطع أيها السادة أن أبعد هذه الصورة عن خيالي وأنا أحصل على التصريح من وزارة الداخلية بعقد هذا المؤتمر هنا في هذا المكان ...

هنا وفي هذا المكان كانت تجتمع أصنام المستعمر الأجنبي وأوثانه التي خافها بعض المصريين وعبدوها من دون الله الواحد القهار ... هنا كان يرتفع العلم البريطاني الذي ظل مرفرفا خمسا وستين عاما يعلن للدنيا أن انجلترا سيدة العالمين لن تخرج من مصر ما بقيت الأرض أرضاً والسماء سماء ... هنا وفي هذا المكان كانت الدبابات والجرارات والمدافع والأسلحة التي أبقت مصر خمسا وستين سنة في قفص من حديد ..

هنا كانت القوة الغاشمة التي سلبت مصر حريتها وحياتها وحولتها من أمة عظيمة مجيدة إلى أسيرة من أسرى الإمبراطورية البريطانية ... هنا كانت تجثم جيوش الظلام التي حجبت نور الشمس ... هنا كانت الإمبراطورية البريطانية التي لا تغرب عنها الشمس .

مصر الفتاة

ومنذ أربعة عشر سنة ولم نكن سوى فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى .. أعلنا الثورة والتمرد على هــذا الاحتلال البريطاني وتحدينا الإمبراطورية البريطانية ووقفنا في وجهها وطالبناها بالجلاء عن بلادنا .. لم نكن في ذلك أول من فعل هذا . فمنذ اليوم الأول الذي دنست فيه أقدام المستعمر أرض البلاد والشعب المصري لا يفتأ يتحدى انجلترا ويطالبها بالجلاء ، وهذا هو مصطفى باشا كامل سيبقى إلى أبد الآبدين بطلا من أعظم أبطال التاريخ ، لا تاريخ مصر ، بل تاريخ الدنيا بأسرها . فهذا شاب صغير لا يملك من الدنيا سوى الإيمان بحق بلاده في الحرية والحياة قد استطاع أن يزلزل الأرض تحت أقدام عرش الإمبراطورية البريطانية وأن يملأ قلوب المصريين بالحقد والكراهية عليها وأن يؤلب الدنيا كلها على خسة بريطانيا ونذالتها عندما اجترأت على تحدي المصريين في دنشواي ..

وجاء اليوم الذى استطاع فيه هذا الشاب الأعزل من كل سلاح أن يطرد كرومر عملاق الانجليز من مصر وأن يعود هو إلى مصر مكللا بأكليل الغار ليقول لمن أرادوا الاحتفاء به إن أعظم ما تفعلونه للاحتفاء بي هو أن تسرعوا إلى إنشاء جامعة مصرية ، فلا سبيل لاستعادة حريتنا ومجدنا إلا من خلال العلم والنور . وقد كان لمصطفى ما أراد وأنشئت الجامعة المصرية قذى فى وجه الاحتلال ويوم أن يسطر تاريخ كفاح مصر ضد الانجليز فستكون أروع صفحاته وقفاً على مصطفى كامل وشباب الجامعة المصرية .

فمصطفى كامل أيها السادة هو خالق الوطنية الحديثة ... وما أسعدنا أن تكون مصر الفتاة من خلقته تنفيذاً لإرادته فلقد قال منذ اللحظة الأولى :

« إنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة » .

ثورة سنة ١٩١٩

ولقد قام الشعب المصرى بثورته الكبرى سنة ١٩١٩ مطالبا بالجلاء عن وادي النيل وحمل سعد زغلول لواء الثورة وقادها فهزت الدنيا كلها فى وقت من الأوقات ، وكانت أول شرارة انطلقت فى الشرق الأوسط بل الشرق كله لإعلان الثورة والتمرد على الانجليز ولكن الانجليز استطاعوا بأساليب مختلفة أن يمزقوا البلد إلى شيع وأحزاب فلم تستطع مصر أن تجنى ثمرات هذه الثورة ، وبدأ النوم والسبات يتلاعب بأجفان الوطنية المصرية .؟!

ومن سنة ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٣٣ استطاع مصرى أن يخمد فى مصر كل روح للمقاومة ضد الانجليز... فى هذه الثلاث سنوات استطاع مصرى أن يقول للانجليز إنه قادر على أن يحكم هذا البلد بالحديد والنار ضد مشيئة أهلها ، ولسنا فى موقف الآن نستبيح فيه لأنفسنا أن نهتف ضد أحد أو نعلن الحرب على مصرى بعينه فالساعة جد حرجة ومصر فى حاجة إلى الاتحاد وضم الصفوف وهي على استعداد أن تنسى كل مافات ومضى إذا كان فى هذا النسيان ما يفيد .

تأسيس مصر الفتاة

وإنما ذكرت لكم هذه المرحلة من تاريخ مصر لأشير إلى الظروف التي نشأت فيها مصر الفتاة فقد كان ذلك في اكتوبر سنة ١٩٣٣ وقد بلغت روح المقاومة في الشعب المصرى الحد الأدنى تحت تأثير الحكومات المستبدة الجبارة، ووصل النفوذ الانجليزى والتحكم الانجليزى إلى صورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ مصر، إلا أن يكون فى مرحلة الاحتلال الأولى حيث كان ممثل بريطانيا يحكم مصر حكماً مباشراً.

فى ذلك الوقت أيها السادة انبعثت مصر الفتاة وأرسلت كلمتها المأثورة «ياشباب سنة ١٩٣٣ كن كشباب سنة ١٩١٩، كن كهذا الشباب الذى أشعل الثورة فى وقت لم يتوقع الناس فيه الثورة، ثورة جامحة ضد الانجليز والأجانب لاتعرف هوادة ولا لينا إلا خلاص الوطن من ربقة الاستعمار.

اضطهاد مصر الفتاة

ولقد ذهل الانجليز لهذه الحركة وظنونا شبابا قد أصيبوا بلوثة من الجنون فلم يتصوروا أن نكون جادين فى هذا الذى نقول وأن يكون فى مصر من يدعو للثورة على الانجليز وإجلائهم عن الوادى فى وقت استسلم لهم الساسة جميعا، الكبار قبل الصغار. ولكن الإنجليز وجدونا نعنى ما نقول، فانفجرت براكين حقدهم فزجوا بنا فى السجون وصادروا جريدتنا، ولكننا خرجنا من السجون أشد ثورة من ذى قبل، وحار الانجليز أو بالأحرى حار عميدهم فى وزارة الداخلية كين بويد ماذا يفعل حيال هؤلاء الشبان، ولكن هذا الرجل وغيره من الانجليز لم يداخله الشك لحظة أن هذه ثورة شباب جامحة لن تلبث أن تنطفىء تحت ضغط الحوادث أو إغراء المناصب أو رنين الذهب... ما زلت أذكر للآن وبعد انقضاء هذه الأعوام الطويلة ذلك الكبير الذى قال لى: من المحال ياسيد احمد أن تستطيع المضى على هذا الأسلوب فلن يدعوك تمضى فيه طويلا وسيسكتونك بأسلوب أو بآخر؟!

ثورة سنة ١٩٣٥

ولكن مصر الفتاة مضت فى طريقها وصوتها يقوى ويشتد فى كل يوم حتى إذا كانت سنة ١٩٣٥ أى بعد عامين اثنين من إنشاء مصر الفتاة ، فإذا بنيران الثورة تندلع فى مصر وإذا بشباب الجامعة يعلن الحرب على الانجليز ويخرج بأضخم مظاهرة شهدتها البلاد منذ عشر سنوات أو تزيد ، وهى تهتف «مصر فوق الجميع-يسقط صموئيل هور» ، فتعرض لهم البوليس الانجليزى فى ذلك الوقت وانهال عليهم بالرصاص وسقط أول شهيدين لمصر الفتاة فى معركة الحياة والحرية وأعنى بهما عبد المجيد مرسى وعبد الحكم الجراحى الذى أنذر وهو يحتضر رئيس وزراء انجلترا بقرب سقوط امبراطوريتها وأن مصر ستبقى فوق الجميع . وأنه لفخار مابعده فخار أيها السادة أن يكون نائب رئيس الحزب الاستاذ ابراهيم شكرى (وكان طالب بالجامة وقتذاك) كاد يصبح أحد شهداء كوبرى عباس فى ذلك اليوم فقد أصيب بأصابة قاتلة لولا أن الله نجاه بعد شهرين طويلين قضاهما بين اليأس والرجاء .

معاهدة سنة ١٩٣٦

وقد كانت ثورة مصر فى سنة ١٩٣٥ ثورة رائعة أعادت إلى الأذهان ذكريات ثورة سنة ١٩١٩ ، وقد كانت الظروف الدولية مواتية بحيث كان فى استطاعة مصر فى ذلك الوقت أن تحصل على حريتها واستقلالها لو أنها مضت فى جهادها وكفاحها ، ولكن قاتل الله الحكم وشهوة الحكم التى جعلت هذا النفر من الجيل القديم الذين يتزعمون الأمة يتهافتون على كراسى الحكم فأبرموا مع انجلترا هذه المعاهدة المشئومة التى حولت الاحتلال الانجليزى إلى احتلال شرعى ؟!

وفيكم من غير شك شبان صغار لم يدركوا هذا العهد ولا يعرفون أسراره والكبار منكم قد نسوا ذكريات هذه الايام . أما نحن فلم ننسها ولا نستطيع أن ننساها لأنها تؤلف أخطر معركة فى تاريخ جهادنا .

كان الزعماء المصريون قد أعلنوا انجلترا بوجوب استئناف المفاوضات

من حيث انقطعت فى سنة ١٩٣٠ وهى المفاوضات التى كانت تهيء السبيل لجلاء الانجليز عن مصر ، ولكن انجلترا رفضت الدخول فى المفاوضات على هذا الأساس وقالت أنها تدخل فى مفاوضات جديدة لاتتقيد فيها بما تعهدت به من قبل . وكان واجب الزعماء فى ذلك الوقت أن يرفضوا ذلك وأن يستخلصوا منه سوء نية بريطانيا ، ولكنهم قبلوا المضى فى المفاوضات بالرغم من ذلك ، بل وفعلوا ما هو أشد من ذلك كله وأنكى ، ذلك أنهم تستروا على إنذار بريطانى وجه لهم ، أنه فى حالة فشل المفاوضات فإن انجلترا تسترد حريتها فى تنظيم علاقاتها بمصر فإن شاءت أعادت إعلان الحماية على مصر . كان ينبغى على الزعماء أن يرفضوا بقوة أن يدخلوا المفاوضات فى ظل التهديد والإكراه ولكن الحرص على الحكم وكراسى الحكم جعلهم يمضون فى المفاوضة ويخفون عن الأمة هذا الذى كان !

المفاوضة فى ظل الأرهاب

وسارت المفاوضات فى جو إرهابى غريب ، فكل من كانت تحدثه نفسه بعدم الرضاء عن شرط من الشروط لقسوتها كان يعتبر خائنا يعمل على فشل المفاوضات ، وإننا مازلنا نذكر بوضوح وجلاء كيف أنه عندما اعترض محمد باشا محمود على الشروط العسكرية ورفض بصفة خاصة فكرة أبدية المعاهدة ... سيرت بعض المظاهرات لتهدد وتنذر كل من يكون سببا فى إحباط المفاوضات ، وانطلقت الاشاعات هنا وهناك أن محمد باشا محمود قد اتفق مع الانجليز لاحباط المفاوضات ، ولكن الرجل تشدد فى بادىء الأمر وأبى أن يوافق على الشروط العسكرية المعروضة وقد كان لموقفه هذا دخل كبير فى تعديل هذه الشروط لمصلحة مصر ، ولكنه فى نهاية الأمر لم يستطع أن يقف بمفرده فى وجه الجبهة المفاوضة ، فاضطر إلى أن يوقع المعاهدة وأن يوقعها وهو كاره غاضب !

المعارضة

وعندما أعلنت نصوص المعاهدة قامت لها معارضة شديدة جبارة حمل لواءها مصر الفتاة والحزب الوطنى وشباب الجامعة وعلوبه باشا وحمى

الدين باشا بركات ولكن هذه المعارضة ضرب بها عرض الحائط وأقمعت بقوة الحديد والنار بعد أن وصفت بأنها تعمل لحساب دولة أجنبية ، فمصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية والحزب الوطنى يعمل لحساب دولة أجنبية ، وكل مصرى يفكر فى انتقاد المعاهدة انما هو مجرم خائن يستحق الاعدام ، وقد كان أشد ما حز فى نفوس الوطنيين المعارضين لمعاهدة سنة ١٩٣٦ هو هذا التهليل والتصفيق الذي أحيطت به المعاهدة حتى وصفت بأنها معاهدة الاستقلال والشرف ... ولقد أقيمت الزينات وأطلقت المدافع وجرت الاحتفالات من الأسكندرية حتى أسوان إيذانا بفجر الحرية والاستقلال والشرف ؟ !.

ولقد وقفت مصر الفتاة فى وجه ذلك الاندفاع الجنونى لتحبيذ المعاهدة وتمجيدها فأطلقنا عليها معاهدة الخزى والاحتلال وأعلنا أنها معاهدة باطلة لاتساوى الحبر والورق الذى كتبت عليه. ولقد كان جزاؤنا السجن والمطاردة والتشريد ولكننا أبينا إلا المضى فى كفاحنا ضد المعاهدة.

فصدرت الأوامر بالإجهاز على مصر الفتاة والبطش بها فزج بكل من انتسب إليها من الأسكندرية حتى أسوان ، وحشروا فى السجون حتى ضاقت بهم وراح البعض يفتل حبال المشنقة ولكن الحكومة سرعان ما سقطت وتألفت حكومة جديدة كان أول أعمالها إنقاذ مصر الفتاة مما أريد لها .

استمرار الكفاح

وواصلنا كفاحنا ضد الانجليز أيها السادة وضد المعاهدة حتى لقد سافرت إلى لندن فى سنة ١٩٣٨ وناديت هناك ببطلان هذه المعاهدة وبوجوب الجلاء عن مصر وتحقيق وحدة وادى النيل ، ولكن نيران الحرب سرعان ما اندلعت وقد كانت هذه فرصة الانجليز للبطش بالوطنية المصرية وعلى رأسها أيضا جنود حزب مصر الفتاة الذين اتعبوا انجلترا ، فزج بنا فى السجون مرة أخرى واعتبر مصيرنا هذه المرة قد تقرر وهو الإبادة والإجهاز علينا نهائيا ... ودارت رحى الحرب بالطريق الذى تعرفون ، وكادت انجلترا أن تهزم فى بادىء الأمر ثم تحولت الحرب هذا التحول المشهور وخرجت انجلترا منتصرة

من الحرب على ألمانيا . ولئن انجلترا التى انتصرت على ألمانيا لم تستطع الانتصار على الوطنية المصرية ، فلم تكد الحرب تضع أوزارها حتى انبعثت الوطنية المصرية العاملة كأقوى وأشد ما كانت فى يوم من الأيام . أما نحن فلم تكد المعتقلات فى نهاية الحرب تفتح لنا أبوابها حتى استأنفنا نشاطنا بكل شجاعة وجرأة ، ومرة أخرى انهالت علينا السجون والاضطهادات ونحن وسط ذلك كله لا نتزعزع ولا نلين ولا نفتأ نصيح من أعماق قلوبنا بالروح كلها « اخرجوا من بلادنا ... اخرجوا من بلادنا أيها الغاصبون » .

وها نحن ..

وها نحن أيها السادة بعد هذا الكفاح الطويل المر نجتمع الليلة هنا ... هنا فى ثكنات قصر النيل ، حيث كان يجثم العدو المغتصب فهل هناك بعد ذلك آية على أن نصر الله قريب ... هل تريدون معجزة روحية أقوى من هذه المعجزة تدلكم على أن الله معكم وأن الله ناصركم وان الجلاء الكامل عن وادى النيل سيتم عن قريب . هل كان هناك انجليزى واحد أو ذنب من أذناب الانجليز يصدق أن أحمد حسين سيقف يوما ليخطب منددا بالانجليز فى ثكنات قصر النيل ، وليطلب من المصريين أن يتبعوه فى مرحلة الكفاح المقبلة طرد الانجليز من البقية الباقية من أرض مصر . فما اجتماعنا الليلة فى الحقيقة الا لتحقيق هذا الغرض وأعنى طرد الانجليز من وادى النيل والقذف بهم إلى البحر .

القضية المصرية

إن طرد الانجليز والقذف بهم إلى البحر هو الغاية من مؤتمرنا ، ولن نستطيع أن نصل إلى تقرير الوسائل اللازمة لذلك إلا بعد أن نستعرض الموقف بشىء من التفصيل والدرس ، لنقرر على ضوئه ما الذى ينبغى عمله .

إن هناك أقواما يظنون القضية المصرية قد وصلت إلى مأزق حرج ، أو إنها أصبحت مشكلة بعد أن عجز مجلس الأمن عن اقتراح أى حل لها ، مع أن عجز مجلس الأمن عن حل القضية المصرية قد رجع بها إلى بساطتها الأولى وليس هناك ما ينبغى أن نشكر الله عليه أكثر من هذا الموقف الذى وقفه مجلس

الأمن بالنسبة للقضية المصرية ... فلو قبل اقتراح من هذه المقترحات التي كا[نت] معروضة قبل المجلس، أو لو أن قرارا صدر بعودتنا إلى المفاوضة مع انجلترا لكانت هذه هي الكارثة التي لم يسبق لها مثيل ... أما اليوم فقد أعلن مجلس الأمن افلاسه، فجعل ذلك الطريق واضحا أمام أعيننا كل الوضوح.

ولقد كان الطريق واضحا أمامنا، نحن أبناء مصر الفتاة، دائما أبداً أما اليوم فقد أصبح واضحا أمام جميع المصريين على السواء.

لقد اعتدى الانجليز علينا فى سنة ١٨٨٢ واحتلوا بلادنا وأهدروا كرامتنا واستقلالنا فأصبح واجبنا واضحا وغايتنا محددة، وهى أن نطرد الانجليز من بلادنا ونثأر لكرامتنا ونحصل على التعويضات اللازمة لما أصابنا من أضرار طوال هذه الخمس والستين سنة التى جثم فيها الاحتلال على أنفاسنا.

لم تكن عادية الانجليز على مصر فى سنة ١٨٨٢ هى أول مرة حاولوا فيها هذه المحاولة، بل لقد حاولوها من قبل فى سنة ١٨٠٧، ولكن الشعب المصرى كان يقظا فى تلك المرة، فهزم الانجليز شر هزيمة وقذف بهم إلى البحر فارتدوا إلى بلادهم مذءومين مدحورين.

واليوم ليس أمامنا بالنسبة للانجليز سوى أن نكرر هذا الذى قمنا فى سنة ١٨٠٧ وهو أن نقذف بهم إلى البحر وأن نقذف بهم إلى البحر بالقوة وإياكم أيها السادة أن تظنوا أن هناك طريقا آخر غير هذا الطريق.

لابد من قوة

هل سمعتم أيها السادة أن أمة من الأمم قد استقلت وتحررت بغير جهاد أو نضال ... قلبوا صحائف التاريخ منذ كان الانسان إنسانا فهل انتصر حق لم يكن مؤيداً بالقوة وهل فاز شعب بالاستقلال والمجد بغير أن يخوض المعارك وأن يخرج منها منتصرا.

أو ليس هذا كتاب الله يقول لنا «وأعدو لهم ما استطعتم من قوة» فماذا تريدون بعد ذلك آية ترسم لنا طريق الخلاص وأنه لن يكون إلا من خلال القوة.

لقد سمعتم عن بولندا بمناسبة موقفها الكريم من قضيتنا فى مجلس الأمن، ولكن الذى قد لا يعرفه بعضكم أنه لا توجد أمة من الأمم قد عانت فى سبيل حريتها واستقلالها مثل ما لاقت بولندا، وكثيرون منكم يعرفون ما قاسته فى هذه الحرب الأخيرة، ولكن قد لا يعرف بعضكم أن ذلك بعض ما تعانيه بولندا منذ أكثر من قرن من الزمان.

إن المشكلة الحالية الخاصة بحدود بولندا قديمة أزلية، حتى لقد سئل نابليون. وقد كان أول من تعلق به البولنديون لتحرير وطنهم من ربقة روس الألمان والنمسويين «— أين

سترسم حدود بولندا ؟ » فأجاب نابليون « سترسم حدود بولندا حيث يسيل الدم البولونى ! ؟ »

ولقد أراد الألمان أن ينعموا يوما بنعيم الوحدة بين دويلاتهم الشتتة فعقدوا المؤتمرات ودارت المناقشات لتحقيق هذه الوحدة فكان الفشل هو نصيب هذه المحاولات إلى أن جاء بسمارك فقال للنواب قولته المشهورة « إن وحدة ألمانيا ستحقق لا بالمناقشات والمفاوضات ولكن بالحديد والنار » وقد تم لألمانيا ما أرادت .

ولم تستطع أمريكا أن تتحرر من انجلترا إلا بعد أن هزمت الانجليز وطردتهم إلى البحر ولم تستطع تركيا فى العصر الحديث أن تنال استقلالها بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى إلا بعد أن هزمت اليونانيين والانجليز والحلفاء جميعا وقهرتهم بقوة السلاح .

الاتهام بالفاشستية

سوف يصيح أقوام بعد سماعهم كلامى هذا قائلين ماهذا التبشير بفلسفة القوة وسياسة القوة ؟ إنها عودة إلى التعاليم الفاشستية وأريد أن أعلن هنا ومن فوق هذا المنبر أننا لن نسمح لأحد بعد اليوم أن يخيفنا بهذه التهمة تهمة الفاشستية ، وإذا كان الكفاح فى سبيل الحرية والاستقلال هو الفاشستية فأنى أعلن للدنيا انى أول الفاشست .

صدقونى أيها السادة إذا قلت لكم مخلصا إنى كنت واحدا من هؤلاء الذين خدعوا بما قيل وأذيع من أن عهد القوة قد انتهى ، وأن الدنيا قد أوشكت أن تستقبل عهدا جديداً من السلام والأخوة والتعاون البشرى .

كنت من هؤلاء الذين هللوا وكبروا لميثاق الاطلنطيق وأنه سيكون خاتمة عصر فى حياة البشرية .. كنت من هؤلاء الذين اغتبطوا بانضمام مصر إلى ميثاق سان فرنسيسكو ، وحين صارت عضوا فى هيئة الأمم . ولقد تصورت لحظة أن قضيتنا يمكن أن تحل فى مجلس الأمن وهيئة الأمم فكنت من الدعاة لهذه الفكرة وكنت أول من طار إلى أمريكا لهذا الغرض .

خيبة الأمل فى أمريكا

إنكم تعرفون ، أيها السادة ، قصة سفرى إلى أمريكا ولكن الذى لا تعرفونه هو الصدمة العنيفة التى شعرت بها وخيبة الأمل التى لحقت بي بمجرد وصولى إلى أمريكا وقبل أن ينقضى على أسبوع واحد . وإذا كنت قد قضيت خمسة أشهر فى أمريكا فما ذلك إلا لأننى رجل لا يعرف اليأس أبدا ، ولقد قررت أن أمضى فى الشوط إلى نهايته ، حتى أجعل الانجليز يشعرون بوطأة دعايتى ضدهم ، وأن يؤرق ذلك مضاجعهم ، فلما تحقق هذا الغرض أسرعت بالعودة إلى مصر ، لأكون فى الميدان الحقيقى الذى ستحل فيه القضية المصرية ، وهو هنا فى القاهرة وليس فى نيويورك .

لم أكد أصل إلى نيويورك حتى شعرت أننى وسط عالم غريب لا يهتم بشىء فى الدنيا إلا بتكديس الدولارات فوق الدولارات ورأيت أقواما يتصورون أن أمريكا هى كل

العالم وأن ما عدا أمريكا لايستحق من الأمريكيين أى عناء ووجدت أن ماتصوره من اهتمام الامريكيين بالحرية والديمقراطية وحق الشعوب فى تقرير مصيرها أن ذلك هو بضاعة محلية تنطبق على الأمريكان ، ولكنها غير معدة للتصدير . أى أنى وجدت نفس القضية التى نجدها فى انجلترا وفى فرنسا وفى كل هذه الدول المستعمرة ، فهى تشيد كلها بأغانى الحرية والديمقراطية ولكنها لاتفهم الحرية إلا لأبنائها ، أما بقية شعوب العالم فلا حرية لها إلا إذا كانت هذه الحرية تتفق مع مصلحة انجلترا ، أو مصلحة فرنسا .

كنت أناقش أمريكيا بعد أن قضيت فى أمريكا قرابة ثلاثة أشهر ، وانكشف لى من أمرها ما انكشف ... قلت له : « إنكم يجب أن تقفوا إلى جوار مصر ، لأن قضيتها هى قضية الحق والحرية » فأجابنى وقد ملأت الدهشة وجهه « هل أنت صحفى كما تزعم ؟ » قلت نعم .. قال « وهل أنت رئيس حزب ؟ » قلت « أجل » قال : « فكيف تتحدث أحاديث رجل الشارع الذى لايعرف من السياسة الدولية شيئا ؟! » إن كلمات حرية الشعوب وحق تقرير المصير والكفاح فى سبيل الديمقراطية إنما هى كلمات تقال لرجل الشارع الامريكى لكى يذهب إلى الحرب ، أما سياسة أمريكا الحقيقية فهى كسياسة أية دولة عظمى وهى أن تسير خلف مصالحها ، ومصلحتنا الآن هى السير إلى جوار انجلترا . وإذن فلن نخذل انجلترا لكى ترضى مصر مهما كان مطلبها عادلا وحقا .. » قلت له « أشكرك ياصديقى على هذه الصراحة التى خاطبتنى بها . لقد كنت قد وصلت إلى هذه النتيجة بينى وبين نفسى من طريق الاستنتاج والملاحظة ، ولكنه يسرنى كل السرور أن أسمعها بهذه الصراحة وهذا الوضوح »

فأمريكا أيها السادة دولة مشغولة بنفسها ، إنها قارة مترامية الأطراف ، سيطرت المادة عليها كل السيطرة ، فلم يعد للناس من هم هناك إلا التفكير فى مضاعفة مايملكون من الدولارات ، والاستمتاع بالحياة المادية حتى آخر حدود الاستمتاع ، وإن مصر بالنسبة لهم تعتبر بعيدة ... بعيدة جدا ، لايعنيهم من أمرها شىء . وهم لايعرفون عن مصر شيئا . ولقد ذهبت لأخطب فى إحدى الجامعات فى غرب أمريكا فكتبوا فى بطاقة الدعوة لسماع المحاضرة « إنه يوجد فى مصر شىء أكثر من الأهرام والجمل : فتعالوا اسمعوا مصريا يحدثنا من هذه الأشياء الأخرى » فبلغ علم الأمريكين بمصر أن بها الأهرام والجمل ، ولايكادون يتصورون بعد ذلك أن هناك أقواما يعيشون على ضفاف وادى النيل .

الشعب الأمريكي والتحكم الرأسمالى

إنى أريد أن أكون منصفاً أيها السادة فأقول لكم إنى وجدت الأمريكى العادى رجلا طيبا بسيطا يتأثر بكلمات الخير كأى إنسان آخر ... ولقد وجدت من هذا الفريق من الشعب ترحيبا وتأييدا فدعيت إلى الكنائس لأخطب فيها ودعيت إلى الجامعات ودعيت إلى معترات الاجتماعات التى سمعت فيها كلمات التشجيع والتأييد . ولكنى سرعان ما أدركت أن ذلك كله لايغنى فتيلا ، لأن الشعب الأمريكى محكوم فى سياسته الخارجية بهذه الطائفة من حكامه والتى تتحكم فيها الرأسمالية الأمريكية . فالرأسمالية الأمريكية هى التى توجه السياسة

الأمريكية ولذلك فأن شركات البترول هي صاحبة القول الفصل في كل ما يتصل بسياسة أمريكا ورجال الأعمال هم أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة ، وغنى عن البيان أن رجال الأعمال لا يعرفون شيئا عن الحرية والديمقراطية وحق الشعوب في المساواة إلى آخر هذه الأقوال التي تبدو في نظرهم خرافية . وكل الذي يعرفه رجال الأعمال هو كيف يسيطرون على الأسواق وكيف يحشدون ملايين الملايين من الدولارات .

الصهيونية

على أن الخطر كل الخطر المسلط على مصر إنما يأتي من ناحية الرأسمالية الصهيونية التي يسيطر على نيويورك وواشنطون . فلكي تتصوروا مقدار النفوذ الصهيوني في نيويورك عليكم أن تعلموا أن عدد سكان نيويورك يبلغ ثمانية ملايين ، ونصف هذا العدد تقريبا من اليهود ، والصهيونية هي التي تتكلم الآن باسم هؤلاء اليهود ، وهم الذين يسيطرون على الرأي العام الأمريكي .. فالصحافة في نيويورك كلها في يد الصهيونيين والاذاعة بالراديو والسينما كلها في أيدي الصهيونيين ، وهذه هي أسلحة الدعاية كلها . ولذلك فالصهيونية في أمريكا تتحكم في سياسة أمريكا الخارجية من غير شك وخاصة في كل ما يتصل بشئون العرب وفلسطين . والصهيونيون يعرفون تمام المعرفة أن استقلال مصر الكامل وحريتها معناه ضياع أحلامهم في إنشاء دولة يهودية في فلسطين ... يعرف الصهيونيون أن مصر القوية التي تتألف من ثلاثين مليونا من أبناء وادي النيل هي وحدها القادرة على تجنيد أربعة ملايين بل خمسة ملايين ، يطفئون بنفخة واحدة هذا الحلم الصهيوني المجرم في تحويل فلسطين إلى دولة صهيونية . ومن هنا فهم يقفون في وجه مصر . ولقد طالما أنذرني الصهيونيون أنه لن يكون هناك استقلال لمصر إلا إذا وافقت أولا على إنشاء الدولة الصهيونية في فلسطين ، فكنت أقول لهم : وأي استقلال يبقى لمصر بعد إنشاء الدولة الصهيونية .

الخوف من روسيا

وهناك بعد ذلك ، أو قبل ذلك ، عنصر آخر يسيطر على رجال السياسة والرأسمالية الأمريكية . وهو أنه لا مناص لهم من حرب ثالثة يشنونها ضد روسيا ، ولذلك فهم يتخذون العدة والأهبة منذ الآن لهذه الحرب ، وهم يعتبرون الانجليز بمثابة الصف الأول من صفوف الجيش الأمريكي ...

ولذلك فقد قرروا أن يأخذوا بناصر انجلترا وأن يقفوا خلفها وأن يمدوها بالمال والعون لتظل قوية مسيطرة على قواعدها في مختلف أنحاء العالمين ، لتكون هذه القواعد تكئة لأمريكا في أي حرب تقوم بينهما وبين روسيا . ولذلك فكثيرا ما كان الأمريكيون يسألونني عقب انتهائي من خطبي ومحاضراتي عن مدى استعداد مصر لمقاومة أي عدوان يقع عليها من روسيا ، وأنه من الخير لمصر أن تبقى انجلترا فيها لتدافع ضد الخطر الروسي . ولقد كنت أحتد وأثور لهذه الحجة السخيفة التي يطالبك فيها لص بأن يسرقك بحجة أنه ان لم يسرقك سرقك لص آخر

اليأس من هيئة الأمم

ومع ذلك فقد يئست نهائياً من الولايات المتحدة ، وأن ينالنا عن طريقها خير مع هذه الظروف المجتمعة التي شرحتها لكم . فظل الأمل يداعبنى أن تكون هيئة الأمم وهى التى تمثل دول العالم مجتمعة ، أحسن موقفاً من الولايات المتحدة . وشاءت الظروف أن تعرض قضية فلسطين ، وأن تعقد لها دورة غير عادية ، خصيصاً للنظر في إيجاد حل لمشكلتها . وهنا أتيحت لنا الفرصة لكى نعرف أننا كنا مخدوعين بالتالى فى هيئة الأمم واستطاعتها ان تقوم بدور مثمر فى حياة البشر ، أكثر من أن تكون مسرحاً لإلقاء الخطب وتمثيل بعض الأدوار المسرحية . فليس هناك قضية عادلة لا تحتاج إلى أخذ ورد كثيرين كقضية فلسطين ، التي تتلخص فى أن الصهيونيين قد قرروا أن يغتصبوا هذه البلاد عنوة واقتدار من أيدى أبنائها العرب وأن تجبيهم منها بكل الوسائل ليحلوا محلهم ... وهى غزوة لا مثيل لها من قبل أو من بعد فهى ليست غزوة جيش أجنبى يريد أن يحتل البلاد ويسيطر على سياستها ولكنها غزوة شعب يريد أن يفنى شعباً آخر ، لأن فلسطين لا يمكن أن تتسع لغير شعب واحد ، إما الصهيونيين وإما العرب ، وقد اعتزم الصهيونيون أن يبيدوا العرب وقد كانوا من الصراحة بحيث لم يخفوا هذه الرغبة عن هيئة الأمم . كان العرب يقولون « أعطوا فلسطين الاستقلال ودعوا الشعب الفلسطينى يقرر مشيئته كما هو حق كل شعب فى الوجود » فكان الصهيونيون يردون قائلين « لا .. إياكم أن تمنحوا فلسطين الاستقلال ، إياكم أن تمنحوها الدستور ، ساعدونا أولا على الدخول إلى فلسطين بكميات كبيرة ، حتى نصبح أغلبية فى البلاد ، فاذا صرنا أغلبية فاعلنوا الدستور ، واعلنوا الاستقلال ، أما قبل ذلك فلا دستور ولا استقلال » هل سمعتم أيها السادة بمثل هذا التحدى والتبجح ...

ومع ذلك فقد وجد الصهيونيون فى هيئة الأمم سميعاً بل ونصيراً ... ولعلكم قد سمعتم عن هذا التقرير الآثم الذى وضعته لجنة التحقيق التي انتدبتها هيئة الأمم . لقد سافرت إلى فلسطين قبل اليوم لجان ، ووضعت تقارير ، وكان آخرها تقرير وضعته لجنة انجليزية أمريكية ، وضعته مشبعاً بروح العطف على الصهيونيين ، ومع ذلك فلم يصدر من قبل تقريراً يصل إلى هذا الحد من الظلم والتجنى اللذين يصل إليهما تقرير لجنة هيئة الأمم .

لقد كان أقصى ما يصبو إليه الصهيونيون ، وأيدهم فيه الأمريكيون ، هو أن يدخلو إلى فلسطين مائة ألف يهودى بصفة عاجلة ، فجاء هذا التقرير يطلب إدخال مائة وخمسين ألفاً . وكان زعماء الصهيونية يطمعون فى تقسيم فلسطين بما يقرب من ثلث فلسطين فجاء هذا التقرير وأعطاهم فى التقسيم جل فلسطين العامل الحى .

ومعنى ذلك أن هيئة الأمم ، أيها السادة ، أشد خطراً على قضايا الشعوب الصغيرة من الدول الكبرى نفسها ... فالدول الكبرى تعمل فيها من خلال غيرها من الدول الصغيرة مالا تستطيع أن تعمله جهرة . فأمريكا التى لا تستطيع أن تغضب العرب بطريقة سافرة تستتر خلف الدول الأخرى فى هيئة الأمم لكى تجعلها تقرر مالا تجرؤ أمريكا على تقريره علنا .

هل تعلمون أيها السادة أن هيئة الأمم تتألف من خمس وخمسين دولة من بينها أكثر من عشرين دولة من دول أمريكا اللاتينية ،وهى كلها — فيما خلا الأرجنتين — ليست إلا صنائع الولايات المتحدة !؟ ولقد نظرت إلى خريطة العالم لأبحث عن كثير من هذه الدول التى ملأت بها الولايات المتحدة هيئة الأمم فلم أستطع أن أعثر عليها حتى جئت بالمصور الجغرافى الكبير لأمريكا الجنوبية ،وهنا وهنا فقط استطعت أن أدرك أين توجد هذه الدول من أمثال جواتيمالا وهايتى وكوبا وبيرو ... هذه الدول التى لا يصح أن توصف بالصغرى بل بالميكروسكوبية هى التى تؤلف جزءاً كبيراً من أعضاء هيئة الأمم ، وهى ليست سوى توابع الولايات المتحدة . يكفى أن يتكلم ممثل الولايات المتحدة فى هيئة الأمم لكى يحظى بموافقة عشرين صوتاً على الأقل ، ولو كان ماينطق به كفراً . فاذا انضمت إليها انجلترا استطاعت أن تضمن أغلبية هيئة الأمم بدون مناقشة أو مراجعة ، وعلى هذا الأساس تسير الأعمال فى هيئة الأمم المتحدة .

ولقد بلغت بنا السذاجة فى مصر إلى حد أن نتصور هذه الهيئة كأنها محكمة يترافع أمامها المترافعون ... وحسبنا نحن العرب أننا نستطيع أن نستخلص منها حقاً عن طريق الحجة والخطب البيانية والمنطق ، مع أن الحقيقة أن القرارات فى هيئة الأمم توضع مقدما ، تضعها الولايات المتحدة وتضعها معها انجلترا ، ومهمة الدول الأخرى أن تبصم على هذه القرارات وأن تقول آمين .

قضيتنا ستحل فى القاهرة

وكما خاب أملى فى الولايات المتحدة خاب أملى فى هيئة الأمم وآمنت من جديد أن لاسبيل لحل قضيتنا إلا بما آمنت به منذ اللحظة الأولى وهى أنها ستحل هنا وعلى ضفاف النيل .. ستحل قضيتنا من خلال العرق المتصبب والدم المراق ،وسيرتفع علم الحرية والاستقلال على صرح من أشلاء الضحايا والشهداء .

ولذلك فقد أسرعت بالعودة إلى مصر ... عدت إلى مصر فى الوقت الذى قررت فيه الحكومة المصرية أن تلتجىء الى مجلس الأمن . ولم يكن من المستطاع منع الحكومة من أن تخطو هذه الخطوة ، فقد كان الشعب المصرى كله يطالبها بأن تخطو هذه الخطوة

وكان من العبث أن لا نجرب فى كفاحنا ضد الإنجليز هذا الأسلوب الجديد من المطالبة بحقنا، على أنه لم يفتنى أن أسجل رأيى فى النتيجة التى سينتهى إليها عرض قضيتنا فى مجلس الأمن ، وإليكم ما قلته فى الإذاعة اللاسلكية بالحرف الواحد فى اليوم السابق على عرض قضيتنا فى مجلس الأمن :

« بقى أن نتساءل هل سيقضى لنا مجلس الأمن أم يقضى علينا ؟ وأريد أن أقول لمواطنى إن مجلس الأمن ليس محكمة ، إنه مجمع سياسى أنشىء لصيانة السلام ومنع الحروب فهو يلجأ إلى كل وسيلة تؤدى الى تحقيق هذا الغرض فى نظنه وقد يرى أحياناً أن يرضى

دولة كبيرة على حساب دولة صغيرة اتقاء لغضبها ومنعها من إعلان الحرب ، أو عصيان أوامره . فعلينا — والحالة هذه — أن نعتبر ذهابنا إلى مجلس الأمن خطوة من خطوات الجهاد لا أكثر ولا أقل ... علينا أن ندرك أننا لن نحصل على حقوقنا إلا بالعمل الشاق والجهاد المتواصل ، وما احتكامنا إلى مجلس الأمن إلا بعض هذا الجهاد ... سوف نحقق مطالبنا هنا في القاهرة وليس في نيويورك ، سوف نحصل على حقوقنا بسواعدنا من خلال العرق المتصبب ومن خلال الكد والتعب وهذا هو الذى دعانى فى الأحاديث السابقة أن أطالبكم بمضاعفة الإنتاج وبالعمل فى مختلف ميادين النشاط : علينا أن نمد إلى جيشنا ، وخاصة بعد صدور قانون التجنيد الإجبارى فنزيد من عدده ، ولنضاعف من أسلحته ... علينا أن ننشىء فى مصر مصانع الأسلحة والذخيرة ، علينا أن نحول مصر إلى بلد صناعى ، فننتج الحديد والفولاذ ، علينا أن نحارب الأمية والجهل فنقضى عليهما ، علينا أن نجعل من أنفسنا شعباً حياً قوياً وهذا هو سبيلنا ، لا لإخراج الإنجليز من وادى النيل فحسب ، بل لقيادة الدنيا كلها . »

مجلس الأمن يفاجئنى

ذلك هو ما قلته أيها السادة وصف النتائج التى سننتهى إليها من مجلس الأمن بل وقد زدت على ذلك أن وصفت مجلس الأمن بأنه بمثابة بورصة سياسية أو مجمع قطاع طرق يعمل فيه الأعضاء على قاعدة « شيلنى وأشيلك » .

فبالرغم من ذلك كله .. وبالرغم من أننى كنت يائسا أن نستفيد من مجلس الأمن شيئا فصدقونى اذا قلت لكم إننى كنت أكثر المصريين دهشة ومفاجأة لهذه النتيجة التى انتهى إليها مجلس الأمن . فقد كان الاجماع منعقداً تقريبا على أن الجلاء عن مصر مسألة مقررة لن ينتطح فيها عنزان ، فإن حق مصر فيها لايحتمل الجدل أو التأويل ومهما بلغ الأمر بمجلس الأمن والدول العظمى فى رغبتها أن تحيد عن الحق لمصلحة انجلترا ؟ فلن يكون بقدرتها أن تصف النهار بأنه ليل ؟ أو تصف الليل بأنه النهار .

وحق مصر فى الجلاء لايحتمل الجدل من وجهة نظر هيئة الأمم المتحدة التى يقرر ميثاقها أن من أهم أغراض هيئة الأمم هو تقرير المساواة التامة المطلقة بين سائر أعضائها ولاتتفق المساواة بحال من الأحوال مع احتلال دولة لدولة أخرى .

ولقد صدر قرار من الجمعية العمومية لهيئة الأمم : بناء على اقتراح مصر بالذات وبموافقة انجلترا يقضى بوجوب الجلاء فوراً من أراضى الأعضاء فى هيئة الأمم .

كل ذلك مضافا إلى حق مصر الطبيعى فى الحرية والسيادة ، وأن لا سلام للعالم إلا بالقضاء على هذه الروح الخبيثة روح استعلاء دولة كبرى على أخرى صغيرة .

وتطبيقا لهذه المبادىء أصدر مجلس الأمن عدة قرارات بوجوب الجلاء فوراً من سوريا ولبنان ، كما أصدر قراراً بوجوب الجلاء عن إيران .

ولذلك فقد كان هناك شبه إجماع على أن قضية مصر لاتكاد تعرض على مجلس الأمن حتى تظفر بالجلاء عن أراضيها خاصة وأن انجلترا نفسها قد سبق لها أن أعلنت عزمها على الجلاء عن مصر براً وبحراً وجواً . وأن الصعوبة الوحيدة التي ستعترض مصر هي الخاصة بوحدة وادى النيل لأن الانجليز هنا قد أحسنوا تزييف القضية على الرأى العام العالمى بحيث باتوا يظهرون بصورة المحامى عن أشقائنا السودانيين فى تقرير مصيرهم . كنا جميعاً إذن نشفق على قضية وحدة وادى النيل فى مجلس الأمن ولكن لم يدر بخلد إنسان حتى ولا الانجليز أنفسهم أن مجلس الأمن لن يصدر قراراً بوجوب الجلاء عن مصر فوراً .

فشل مجلس الأمن

ولكنكم رأيتم ماذا حدث فى مجلس الأمن ، فبعد مناقشات طويلة عريضة انتهى الأمر إلى تعليق القضية المصرية على غير نتيجة حاسمة ، ولم تظفر مصر بجلاء الجيوش البريطانية عن أراضيها ، وكان لدى انجلترا من الوقاحة مالا نظير له . فلقد طالبت انجلترا الفاجرة بحق البقاء والاستقرار فى مصر بموجب معاهدة سنة ١٩٣٦ . وقد شايعها مجلس الأمن بأغلبية أعضائه على هذه النظرية فكانت هذه النتيجة التى تعرفونها .

فما هو السر فى ذلك ؟! السر فى ذلك أن انجلترا قد استخدمت كل ثقلها فى الميزان للخروج من هذه المعركة فائزة منتصرة لتصفع الوطنية المصرية صفعة لاتقوم لها من بعدها قائمة كما يتصور الانجليز ويتوهمون . فعلينا أن نثبت لانجلترا وبأسرع مما تتصور أنها صفعت نفسها ولم تصفعنا نحن وأنها هزمت مجلس الأمن ولم تهزمنا نحن ... سوف نثبت لانجلترا وبأسرع مما تظن أنها خسرت كل شىء بهذا الموقف وأننا كسبنا كل شىء .

محاولات انجلترا لهزيمتنا فى الماضى

وليست هذه أول مرة تحاول فيها انجلترا أن تهزم الوطنية المصرية هزيمة ساحقة ثم تفشل فى هذه المحاولة . فلقد أرادت أن تبطش بالوطنية المصرية عندما ازدهرت وأينعت تحت قيادة مصطفى باشا كامل ، فانتهزت حادث دنشواى لتلقى على المصريين درساً قاسياً .. فكانت هذه المحاكمة ، بل هذه المؤامرة على اغتيال أبناء دنشواى ... وكان أن نصب كرومر المشانق فى هذه القرية المصرية ، وكان أن جىء بالمحكوم عليهم صفاً واحداً شهدوا مصارعهم ، وحشد النساء والأطفال والشيوخ ليشهدوا مصرع أبنائهم وأزواجهم وآبائهم ، وتلطخت أرض دنشواى بالدم ، وفرك كرومر يديه وظن أنه هزم الوطنية المصرية فلم يلبث مصطفى كامل أن أثبت أن شرف انجلترا هو الذى تلطخ بالطين والوحل واستطاع ذلك المصرى الشاب أن يشهر بانجلترا وأن يحملها على الشعور بالخزى والعار فاعتذرت للعالم المتمدين عن فعلتها وعزلت كرومر المتأله عن منصبه وفتحت السجون لبقية شهداء دنشواى الأحياء وراحت تجرب سياسة جديدة هى سياسة استرضاء المصريين .

وفى سنة ١٩١٩ سخر الانجليز فى بادىء الأمر من ثورة المصريين وقال قائلهم إن باستطاعة انجلترا أن تطفىء ثورة مصر بصفقة ،ولكن الحوادث سرعان ماأثبتت أن مصر هى التى بصقت على انجلترا ، وأن الأسد البريطانى قد تحول إلى كلب هزيل . فقد كان مطلب الشعب المصرى فى ذلك الوقت أن يسمح لممثليه بالسفر إلى مؤتمر الصلح بباريس لمناداة باستقلال مصر فرفضت انجلترا التصريح لسعد زغلول وصحبه بالسفر وبدلا من ذلك قبضت عليهم ونفتهم إلى مالطة. فكانت الثورة المصرية العاتية التى اضطرت انجلترا إلى أن تفرج عن سعد وصحبه وأن تسمح لهم بالسفر إلى باريس . لكنها حاولت من ناحية أخرى أن تهزم الوطنية المصرية وكان المصريون يعلقون آمالا كبارا على الرئيس ولسون كما كانوا يعلقون آمالا كبارا على أمريكا فى هذه الأيام فأسرعت انجلترا إلى ولسون واستصدرت منه تصريحا يبدى فيه موافقته على الحماية التى أعلنتها انجلترا على مصر ثم زادت على ذلك كله فحملت سائر دول العالم على الاعتراف لها بالحماية على مصر ،وفركت انجلترا يديها معجبة مسرورة ظنا منها أن المصريين لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة . ولكن لم يمض عام واحد على حصول انجلترا على اعتراف من العالم بحمايتها على مصر حتى أعلنت للعالم أن الحماية لم تعد علاقة مشروعة بينها وبين مصر وأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة! وهكذا انتصرت الوطنية المصرية رغم أنف انجلترا الجبارة وتحول الأسد البريطانى الى كلب هزيل مرة أخرى ! .

وفى سنة ١٩٣٥

وفى سنة ١٩٣٥ حاولت انجلترا مرة أخرى أن تفرض الحماية على مصر من جديد، فراحت تتدخل فى أخص شئونها ، وفيكم كثيرون من الشباب الذين لايعرفون ماذا جرى فى ذلك الوقت والذين عاصروا هذه الفترة قد نسوا من غير شك،أما نحن فلن ننسى لأن الحوادث جزء من كياننا . لقد راح المندوب السامى يتدخل فى أخص شئوننا الداخلية حتى فى تعيين العمد وراح يزور أقسام البوليس ليفتش على النظام والنظافة فى الأقسام . وعندما أصيب جلالة الملك الراحل بالمرض راحوا يتدخلون فى جنسية الأطباء الذين يعالجونه . فى ذلك الوقت ظن الانجليز أنهم نجحوا أخيرا فى إخماد روح الوطنية المصرية وقرروا أن يسحبوا الدستور المصرى الذى سبق لمصر أن أعلنته فأعلن وزير الخارجية البريطانى السير صمويل هور أن دستور سنة ١٩٢٣ لم يعد صالحا لمصر وأنه يحسن بمصر أن تفكر فى وضع دستور من طراز آخر . وكان معنى ذلك أن الحماية على مصر قد فرضت نهائيا . فانفجر بركان الغضب المصرى . وكانت هذه الثورة التى حدثتكم عنها فى مستهل خطابى والتى انتهت بسقوط صمويل هور . وعودة الدستور المصري الذى وضعته الأمة !

مايلز لامبسون

وقد أرادت انجلترا أن تستغل فرصة الحرب لتعود بمصر إلى الوراء وتسلبها شخصيتها

الدولية وصوتها وكلكم تعرفون الدور الذي قام به مايلز لامبسون منذ قامت الحرب حتى رحل من البلاد وكيف تحدى مليك البلاد وعمل على أن يكون صاحب الكلمة الأولى في مصر؛ وأحسب أن اجتماعنا هذه الليلة هنا في ثكنات قصر النيل وبعد أن طرد مايلز لامبسون من مصر شر طردة وبعد أن جلا الانجليز من القاهرة والاسكندرية هو رد مصر على هذه المحاولة البريطانية .

في مجلس الأمن

وأخيرا شاءت انجلترا مرة أخرى أن تجرب قوتها بالقياس إلى مصر فاستخدمت سلطانها وجبروتها لكي تهزم مصر هذه الهزيمة المنكرة في مجلس الأمن لقد أرادت انجلترا أن تقول للمصريين لقد رفضتم مشروع صدقي — بيفن والذي علقت فيه أنني سأجلو في سنة ١٩٤٩ في مقابل مجلس دفاع مشترك ونص بروتوكول السودان الذي كان يعطيكم سيادة اسمية على السودان لمدة عشرين سنة .

فأبيتم إلا الاحتكام إلى مجلس الأمن ، فليكن ! سوف أعطيكم درسا لا تنسوه ، وكان ما كان في مجلس الأمن مما تعرفون . ولقد أخذنا درسا من مجلس الأمن فعلا ولكنه درس لن يسر انجلترا إن كل مصري قد بات يعرفه الآن وهو أننا لن نحصل على حقوقنا من انجلترا إلا بعد أن نقهرها في ميدان القتال وإلا بعد أن نطردها طردا ونغلبها على أمرها بقوة السلاح — هذا هو الدرس الذي تلقيناه في مجلس الأمن ولم نتلق درسا سواه ، وإنها لفائدة كبيرة لو لم تكن استفدنا غيرها من مجلس الأمن لكانت نعم الفائدة .

ماذا كسبنا من مجلس الأمن

على أننا قد كسبنا مكاسب أخرى من التجائنا إلى مجلس الأمن أيها السادة فلأول مرة منذ بدأ الاحتلال الانجليزي لمصر يتمسك رئيس وزارة مصري ويبدأ بسب انجلترا مشهرا بها على ملأ من العالمين .. لأول مرة في تاريخ العلاقات المصرية الانجليزية يتحدى رئيس حكومة مصرية انجلترا هذا التحدي ثم يظل آمنا في كرسيه وهذا هو الاستقلال في أكمل معانيه ، فما حدث في مجلس الأمن قد أكد استقلالنا وأبرز شخصيتنا وأعلى من مكانتنا ، فلن تنظر دولة بعد اليوم لمصر على اعتبارها جزء من الامبراطورية البريطانية أو أنها تابعة أو ملحقة من ملاحق بريطانيا ، ولكن سينظر اليها كأمة مكافحة مجاهدة ، وليس هناك ما هو أحق بالفخار والاعتزاز من الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال ، فكل مصري يحق له أن يسير رافع الرأس موفور الكرامة وأنه لا يرضى بغير الحرية والمجد بديلا .

معرفة الأصدقاء والأعداء

على أن الفائدة الحقيقية أيها السادة هي أننا استطعنا من خلال المناقشات في مجلس الأمن أن نعرف أصدقاءنا وأعداءنا من بين الدول الكبرى والصغرى بحيث بات في مقدورنا أن نرسم سياستنا المستقبلة على ضوء ما انكشف لنا في مجلس الأمن .

لقد رأينا دولة واحدة تقف إلى جوارنا مائة في المائة وتدافع عن قضيتنا بأبلغ ما يستطيع مصري أن يدافع به عن هذه القضية ولم تكن هذه الدولة سوى سوريا الشقيقة وإنني لأشعر بالاغتباط أيها السادة كلما تذكرت صداقتي بدولة فارس الخوري وثقتي التي لاحد لها به ، وإن كان هناك عبرة يجب أن نعتبر بها من موقف سوريا إلى جوار قضيتنا في هذا الموقف فهي أن مستقبلنا السياسي رهن بالجامعة العربية وتقويتها فعلينا أن نعض على هذه الجامعة بالنواجذ وأن نعتبرها حجر الزاوية في سياستنا الخارجية وأن نعمل الليل والنهار على تقويتها دائماً أبداً حتى تتحول إلى وحدة عربية كاملة ، قد لا يزن صوتها كثيراً في الميدان الدولي ولكن مصر المؤيدة بشقيقاتها العربية في الشرق والغرب هي الدولة العظمى التي لا يمكن أن يتجاهلها متجاهل مهما بلغ من القوة والجبروت .

انجلترا وفرنسا

وإذا كانت سوريا هي الدولة الوحيدة التي وقفت إلى جانب مصر هذا الموقف الرائع من التأييد على طول الخط فأن هناك دولة أخرى وقفت من مصر موقف العداء على طول الخط ولم تحاول أن تستر خصومتها لمصر ولو في ثوب من النفاق والرياء .. هناك دولة كان السم يقطر من كل كلمة ينطق بها ممثلها . لقد توعدونا بأنها على استعداد أن تنقض كل قرار لا يكون لمصلحة انجلترا أو ترضى عنه ، وهذه الدولة هي فرنسا الدولة الملعونة المجرمة .

إن كل حرب نوجهها إلى انجلترا يجب أن تتفاعل بطريقة أوتوماتيكية فرنســا معها ولست أكاد أعدو الواقع إذا قلت إن عداء فرنسا لمصر قد يزيد على عداء انجلترا نفسها .

وليس هناك من هو أسعد مني أيها السادة بموقف فرنسا هذا الموقف الأثيم فقد كان أخشى ما أخشاه أن تقف منا موقفاً فيه بعض المجاملة فيضطرنا ذلك أن نحرص على هذا الموقف بتقليل جهادنا في سبيل حرية اخواننا في شمال أفريقيا . فأنتم تعلمون أيها السادة أن فرنســا تستعبد اخواننا في تونس والجزائر ومراكش استعباداً لم يسمع التاريخ بمثله ... فهذه الدولة المجرمة على استعداد في كل وقت وآن أن تريق دم المراكشيين أو الجزائريين وأن تقتلهم بالمئات والألوف وعشرات الألوف بمجرد أن يرفعوا صوتهم في طلب الحرية . هـــذه الدولة لا تزال تستخدم الأساليب الهمجية والبربرية ولا تــكاد تدرك أن الدنيا قد تطورت وأن العصور الوسطى قد انتهت منذ أمد بعيد .

وستبقى الحرب مشبوبة بيننا وبين فرنسا مابقيت تحتل شبراً من البلاد العربية ولن تهدأ هذه الحرب إلا في اليوم الذي تتحرر فيه مراكش وتونس والجزائر من آخر ظل للاستعمار الفرنسي، ولذلك فقد كان أخشى ما أخشاه أن تقف فرنسا في صف قضية مصر ضد انجلترا خصوصا وأن لفرنسا ثأرا قبل انجلترا بالنسبة لسوريا ولبنان فقد عملت انجلترا جاهدة على طردها من هذا الجزء من العالم وكان المظنون أن فرنسا ستنتهز الفرصة لكي ترد لانجلترا الصاع صاعين ... ولكن فرنسا الدولة المنحلة التي قضى عليها بالفناء قد رأت أن تلوذ بانجلترا شيخة الاستعمار وأن تقف إلى جوارها ظنا منها أن ذلك هو حبل النجاة الذي يمد في عمر الدولة الفرنسية ولكن مثل التحالف بين فرنسا وانجلترا في هذا الصدد كمثل القول القائل « ائلم المتعوس على خايب الرجا » .

ولقد قلت في الاسكندرية عبارة أريد أن أكررها هنا كي يسجلها التاريخ حين يحين موعدها وهي أنه سيأتي وقت نحتاج فيه إلى كل سماحة الاسلام وانسانية الشرق لكي نحول فيه بين عرب شمال أفريقيا وبين الأخذ بالثأر من الفرنسيين في داخل فرنسا نفسها .

روسيا وبولندا

هذان هما الطرفان أيها السادة، سوريا في جانب مصر مائة في المائة وفرنسا في جانب انجلترا مائة وعشرين في المائة ، وبين هذين الطرفين تدرجت الدول في مناصرة المطالب المصرية ومقاومتها ، ولاشك أن روسيا وبولندا تأتي في الدرجة الأولى في تأييد قضية مصر، والولايات المتحدة في الدرجة الأولى في تأييد قضية انجلترا، وحاولت الصين جاهدة أن تقوم بدور لمصلحة مصر ولكنها لم تصل إلى نهاية الشوط ، ويجب أن يكون تعاملنا مع الدول المختلفة هو بنسبة ما أظهرته كل من هذه الدول من التأييد .

لقد أيدت روسيا وبولندا مطلب مصر الخاص بالجلاء عن وادي النيل بدون قيد ولا شرط ولكنها تحفظت فيما يختص بمستقبل السودان ومهمتنا أيها السادة أن نزيد تبصير الروسيين بتحقيق وحدة وادي النيل وأنه بالنسبة لمصر مسألة حياة أو موت وعلينا في نفس الوقت أن نزيد صلاتنا الاقتصادية بروسيا ولقد حان الوقت الذي نفرق فيه بين الشيوعية كمبدأ وبين التعامل مع روسيا كدولة عظمى، لأن روسيا نفسها تفرق بين الاثنين. فقد طالبنا حتى قبل الحرب بوجوب الاعتراف بحكومة روسيا والدخول معها في معاهدات تجارية أما اليوم وروسيا هي الدولة العظمى التي تتصرف في شئون أوربا الشرقية وتسيطر على شمال آسيا وأوربا فإنه من العبث أن يخيل لنا اننا نستطيع أن نبقى عنها في معزل وقد وقفت روسيا منا ذلك الموقف فقد أصبح واجبا نحو أنفسنا أن نزيد في علاقتنا معها وأن نرد التحية بمثلها بل ونتخذ من صلاتنا الودية مع روسيا سلاحاً نشهره في وجه العدوان البريطاني ومن يلوذ به أو يؤيده .

بقية الدول

أما بالنسبة لبقية الدول فيجب أن يكون تعاملنا معها وقربنا منها أو ابتعادنا عنها بنسبة تأييدها لقضيتنا ، على أن لا ندخر وسعا فى بذل كل ما فى استطاعتنا لشرح عدالة قضيتنا لهذه الدول عن طريق سفرائنا ووزرائنا المفوضين واستعمال كل وسائل الضغط الأدبى لحملهم على الوقوف الى جوارنا ، فإذا لم تجد كل هذه الوسائل فلم يبق إلا المقاطعة الاقتصادية نشهرها فى وجه كل دولة تقف منا موقفا عدائيا .

قرب نهاية مجلس الأمن

هذا هو استعراض الموقف بالنسبة للنتيجة التى انتهى اليها مجلس الأمن ، على أننى لا أستطيع أن أدع هذه النقطة تمر دون أن أسجل على مجلس الامن فشله فى حل القضية المصرية ، وأن هذا المجتمع لم يعد له بالتالى أى قدر أو اعتبار .

لقد فشلت عصبة الأمم القديمة لأنها لم تستطع أن تعالج أمثال هذه القضايا التى تعتدى فيها دولة كبيرة على أخرى صغيرة . وقد كان اول معول هدم سلطان مجلس عصبة الأمم القديمة عندما فشل فى إيجاد حل لاعتداء اليابان على منشوريا فى سنة ١٩٢٣ ، فلما تكرر عدوان اليابان على الصين بعد ذلك ووقف مجلس العصبة مكتوف اليدين زاد ذلك فى ضعف مجلس العصبة . على أن آخر مسمار دق فى نعش عصبة الامم كان فشلها فى ايقاف العدوان الايطالى على الحبشة فظهر لكل ذى عينين أن عصبة الامم ليست سوى مظهر خداع ضرره أكثر من نفعه لأنه يحمل الدول الصغرى على الاعتماد عليه حيث لا يستطيع أن يفيدها فى قليل أو كثير

وقد كان معنى فشل عصبة الأمم فى معالجة هذه القضايا أن أصبح الاحتكام الى السلاح ضروريا فاندلعت نيران الحرب التى تعرفونها والتى أحرقت الأخضر واليابس فى أوربا كلها والتى خرج منها المنتصر أسوأ حالا من المنهزم .

واليوم تتكرر هذه المأساة ويظهر مجلس الأمن فشله فى معالجة قضايا الدول الصغرى ... وقد بدأ الشك يدب فى قيمة مجلس الأمن ... على أن الإفلاس الذى ظهر له المجلس بالنسبة لقضية مصر قد يكون بعيد الأثر أكثر مما تتصور انجلترا التى علقت الآمال الكبار على هيئة الأمم ومجلس الأمن . لقد أصبح هذا المجلس فى ذمة التاريخ من حيث كونه قوة فعالة قادرة على حل المشاكل العالمية بروح العدل والأنصاف . سيبقى هذا المجلس بعد اليوم شبحاً بلا روح وهو فى انتظار ضربة أخرى لا يلبث أن يخر معها مغشيا عليه .. وقد تكون هذه الضربة أقرب مما تظنون وفى اعتقادى أن قضية فلسطين وفشل هيئة الأمم فى حلها ستكون هى المعول الذى يهدم هيئة الأمم نهائيا .

ولن نخسر نحن أيها السادة من هدم هذه المنظمة الدولية وإنما تخسر الدول العظمى التى ستشتعل نيران الحرب فيما بينها من جديد ... وقيام حرب عالمية ثالثة سيكون فيها القضاء الأخير على دول أوربا .

لامفاوضات مع انجلترا

والآن وهذا هو الموقف وقد عجز مجلس الأمن عن حل قضية مطالبنا القومية .

إن الرجوع إلى المفاوضات مع انجلترا قد أصبح مسألة مفروغاً منها ولا يوجد مصرى واحد يجرؤ على الدخول فى مفاوضات مع انجلترا قبل جلاء الجيوش البريطانية عن مصر كما أن مصر لن تحتمل بقاء هـذه الجيوش على أرضها بعد اليوم .

ولعله قـد أتاكم من العلم أيها السادة ميثاق لجنة اتصال الأحزاب والهيئات التى قررت فيه مقاومة كل حكومة لاتعلن بطلان معاهدتى سنة ١٩٣٦ و ١٨٩٩ وتقبل الدخول فى مفاوضة مع انجلترا قبل الجلاء عن شطرى الوادى . فالعزم قد انعقد على عدم الدخول فى مفاوضات مع انجلترا قبل الجلاء وعلى وجوب إبطال معاهدتى ١٩٣٦ و ١٨٩٩ لتحقيق مطالبنا القومية مادمنا نرفض المفاوضة وتبدى بعض الدول دهشتها من إصرار مصر على عدم المفاوضة مع انجلترا حتى ولو كانت متأكدة أن هذه المفاوضة ستؤدى إلى الجلاء ولقد كنا فى مقابلة مع وزير الصين المفوض فى مصر فكان يقول إنا لقد صبرتم سنوات وسنوات فما ضركم أن تصبروا بضعة أشهر أخرى مادمتم متأكدين أن الجلاء سيتم حقاً .

والمسألة كما قلت له مسألة مبدأ من ناحية وهى غير منتجة من ناحية ثانية .

المسألة مسألة مبدأ فقد اعتدى الانجليز علينا بدون مفاوضة وبدون أن يأخذوا رأينا فإذا شاءوا اليوم أن يكفوا عن عدوانهم فالأمر لايحتاج الى مفاوضة ويجب أن يشرعوا فى الجلاء فعلا بدون الرجوع إلينا فإذا شاءوا أن يفاوضونا فى هذا الموضوع فإن ذلك لا يعنى سوى شىء واحد وهو أنهم يساوموننا على الجلاء فهم يبدون الاستعداد للجلاء فى مقابل أن نتزل لهم عن حق من الحقوق وهذا هو ما نريد أن نتفاداه . إن مشروع صدقى بيفن المقبوت أيها السادة كان هو النتيجة الطبيعية لرغبة المصريين الشديدة فى الجلاء فساومنا الإنجليز على هذا الجلاء فانتزعوا من المفاوض المصرى مجلس الدفاع المشترك وانتزعوا من المفاوض المصرى هذا التفريط فى موضوع السودان فلو عدنا للمفاوضات من جديد لتكرر الموقف ولدفعنا حرصنا الشديد على تمام الجلاء أن نقبل هذا الفرط وذلك ضد إرادتنا .. وانجلترا لا تكسب شيئاً من هذا الوضع فكل معاهدة توقعها مصر فى ظل الإكراه فهى معاهدة باطلة وهى معاهدة ستثور عليها الأمة إن عاجلا أو آجلا فلا تلبث انجلترا أن ترى نفسها فى ذات الموقف الذى تقفه اليوم بالنسبة لمصر .

فالمفاوضة فى الجلاء لم يعدلها مجال بأى حال من الأحوال وعلى الانجليز إذا كانوا يرغبون فى مفاوضة المصريين أن يجلوا أولا وسريعا بدون قيد أو شرط ، أما قبل هذه الخطوة فلن يجدوا مصرياً واحداً يجرؤ على الدخول معهم فى مفاوضات .

الجلاء ووحدة وادى النيل

وقد بقى أن يتساءل البعض فما هو الطريق العملى إذن لتحقيق الجلاء ووحدة وادى النيل مادمتم ترفضون المفاوضة مع انجلترا قبل تمامهما وما دام مجلس الأمن من ناحية أخرى، قد فشل فى إجابتنا إلى مطالبنا وقبل أن أجيب على هذا السؤال الذى هو بيت القصيد من اجتماعنا هذه الليلة أريد أولا أن أحدد من جديد هذه المطالب القومية وأن أشرحها فإنى أخشى أن يكون البعض منا فى حاجة إلى زيادة إيضاحها .

إن مطالب البلاد التى أجمعت عليها الأمة هى الجلاء عن وادى النيل شماله وجنوبه ، فأما الجلاء أيها السادة فأمره معروف ولا يحتاج إلى كبير شرح ، إننا لا نريد على ظهر بلادنا جندياً أجنبيا واحداً ولقد أعلن الانجليز استعدادهم للجلاء عن مصر براً وبحراً وجواً ، فيجب أن يفعلوا ذلك وأن يفعلوه بسرعة وأن يتم ذلك بدون قيد أو شرط فالجلاء هو حقنا الطبيعى ولا يمكن أن نقبله على أى شرط من الشروط ، والجلاء عن مصر يستتبع حتما الجلاء عن السودان لأن هــذه القوة الانجليزية التى ترابط فى السودان هى شرذمة من القوات التى ترابط فى مصر وقد احتلت السودان نتيجة احتلالها لمصر فإن سقط الأصل فقد وجب أن يسقط الفرع ولا قيمة للجلاء عن شمال الوادى إذا لم يتم الجلاء فى نفس الوقت عن جنوبه لأنه لا استقلال لمصر بغير السودان ولا حرية لمصر بغير حرية السودان وهذا يجرنا إلى تحديد مطلب مصر الثانى وهو وحدة وادى النيل

وحدة وادى النيل

عندما تألفت مصر الفتاة منذ ثلاثة عشر سنة جعلت مبدأها الأساسى « بلادك هى مصر والسودان لا ينفصلان ولا يتجزآن » وقد كان كثيرون من المصريين فى ذلك الوقت لا يتصورون هذا المعنى ويحسبونه مستحيلا من المستحيلات أو خيالا من الخيالات وأحمد الله أنى عشت حتى رأيت وحدة وادى النيل تصبح على كل فم وكل لسان بل وتفشل المفاوضات بين مصر وانجلترا لأنها لم تحقق هذه الوحدة . غير أنه يؤسفنى أيها السادة أن أقرر هنا أن هناك فريقا من السودانيين والمصريين معا لا يدركون تماما معنى هــذه الوحدة ففى السودان هذه الشرذمة التى تطلق على نفسها وصف الانفصاليين ، وفى مصر عــدد قليل من المصريين يردد أقوالهم وترهاتهم بدعوى حق تقرير المصير فاسمحوا لى أن أشرح هذه الوحدة بين مصر والسودان وأعلن بصراحة أن مصر ستحارب بكل قوة كل من تحدثه نفسه بفصل السودان عن مصر لأى حجة من الحجج أو عذر من الأعذار . إن فصل السودان معناه فصل الرأس من الجسد ولا يوجد كائن حى يسلم بقطع رأسه قبل أن يدافع عن نفسه بكل الوسائل المختلفة .

إن هناك بعض الجهلة سواء في مصر أو السودان لايدركون حتى الآن حقيقة الصلة بين مصر والسودان ولذلك فانى أريد أن أبين لهم الليلة حقيقة هذه الصلة. إننا لانريد أن يكون السودان جزءا من مصر لأننا نريد الاستعمار أو لأننا نريد تكوين امبراطورية، فقد انقضى عهد الامبراطوريات وسيادة شعب على شعب ... إننا لا نريد السودان جزءاً من مصر كى نستعلى على السودانيين كما تزعم الدعاية الانجليزية ، وإننا نطالب بوحدة وادي النيل وبأن السودانين مصريون يجب أن يتمتعوا بكل ما يتمتع به المصرى لأن هذه حقيقة واقعة من ناحية ولأننا لانستطيع لانحن ولا السودانيون أن نحيا بدون هذه الوحدة .

يجب أن تعلموا تمام العلم أيها المصريون أن بلادكم صحراء بلقع بغير ماء النيل ، وأن باستطاعة من يتحكم فى ماء النيل فى السودان أن يستعبد المصريين جميعاً وأن يهلك الحرث والنسل . يجب أن تتذكروا دائماً أن لكم خزانات وسدودا فى السودان كجبل الأولياء وأنه يمكن قفل هذا الخزان بحيث لا تصل إلى مصر . نقطة واحدة فى زمن التحاريق ... فلتسمع الدنيا كلها هذه الحقيقة وهى أنه باستطاعة المتحكم فى السودان أن يحول دون وصول نقطة واحدة من مياه النيل إلى مصر . ومعنى ذلك القضاء على المصريين عن بكرة أبيهم .. ولن يوجد كائن حى، فضلا عن شعب بأكمله، يسمح أن يكون مصدر حياته فى جسم آخر منفصل عنه ولم نر حتى الآن كائناً يعيش بغير قصبة هوائية أو بغير رئة أو بغير قلب أو بغير عمود فقرى .

والسودان هنا هو كل هذه الأعضاء مجتمعة فمن العبث أن يتخيل متخيل أننا نستطيع أن نعيش منفصلين عن السودان .

إنكم جميعاً تعرفون أيها السادة أنه إذا كان لفرد من الأفراد حقل لايروى إلا بمرور المياه من خلال الحقل الآخر فإنه يصبح له حق ارتفاق على هذا الحقل الآخر . أى يصبح له مظهر من مظاهر الملكية على هذا الحقل ...

وتعرفون أن الفلاحين يقتلون كل من تحدثه نفسه بالوقوف فى وجه المياه التى ترد إلى حقلهم، لأن المسألة مسألة حياة أو موت فمجرد مجىء المياه إلى مصر من السودان يجعله جزءاً لايتجزأ من مصر . يقول الإنجليز إذا صح ذلك فيجب أن تطالبوا بملكية أوغندا أيضاً حيث توجد بها بحيرات فيكتوريا والبرت، وملكية أثيوبيا كذلك حيث توجد بحيرة تسانا وحيث يأتى فيضان النيل ... فأما أوغندا فنحن لاننظر إليها إلا باعتبارها جزءا لايتجزأ من السودان وعندما نطالب بالسودان فنحن نعتبر أوغندا جزءا لايتجزأ منه وليس ذلك بالأمر الجديد فأوغندا هى مديرية خط الاستواء التى كانت أقدام المصريين هى أول من وطأتها والتى ارتفع العلم المصرى عليها منذ أكثر من سبعين سنة . إننا نتحدث عن نهر النيل إنه وحدة واحدة وحيث جرى ماء النيل أو ينبع النيل فهى مصر .

أما بالنسبة للحبشة فالأمر فيها يختلف بعض الشيء . فالمياه التي تأتي إلينا من هناك هي مياه الفيضان ولا توجد قوة على ظهر العالم تستطيع أن تحول بين المياه وبين الهبوط من أعلى إلى أدنى فالحبشة هي الجبل ونحن السهل ولابد للمياه أن تنحدر من الجبل إلى سفح الجبل ولقد أجمع الفنيون على أن مياه الفيضان لا يمكن الحيلولة بينها وبين الانسياب إلى مجرى النيل ، لأنها ليست سوى هذه الأمطار التي لا حد لها والتي تسقط على قمم الجبال وتنحدر إلى أسفلها وذلك بعكس المياه التي تأتينا من السودان والتي قلت لكم أنه يمكن الحيلولة بينها وبين الوصول إلى مصر ، بل إننا لن نستطيع أن نزرع أراضي جديدة في مصر إلا إذا قمنا بمشروعات جديدة في منطقة السدود لتحفظ مياه النيل من التبدد والضياع فالمسألة أن الحبشة لم تكن في أي يوم من الأيام جزءا من مصر وذلك على خلاف السودان الذي كان دائما أبداً جزءا من مصر وليس أدل على ذلك من أن السودان كان دائما أبداً يدين بدين المصريين ويتحدث لغة المصريين ويتثقف بثقافتهم وذلك لوحدة الشعبين وذلك على خلاف الحبشة التي تتكلم بلغة غير اللغة المصرية وتدين بغير دين الغالبية

والآن فلنفرض أيها السادة أن الحبشة عمدت إلى الاضرار بحق مصر في مياه النيل وحاولت بأسلوب أو بآخر أن تحول النيل أو أن تمنعه .. ففي هذه الحالة لا يظن ظان أيا كان أننا سنتردد في الوصول الى النتيجة الحتمية في هذه الحالة وهي أن نطالب بأن تصبح الحبشة في وحدة سياسية مع مصر ... ذلك أن المسألة كما قلت لكم هي مسألة حياة أو موت ونحن لسنا على استعداد بطبيعة الحال أن نسمح لكائن من كان أن يعتدى على حياتنا دون الدفاع عن أنفسنا .. فالوحدة بين مصر والسودان مسألة لا مناص منها ولا ينبغي أن يحلم سوداني مهما عبث الانجليز بعقله أننا سنسمح له يوما من الأيام أن يتحكم في مصيرنا . إننا عشرون مليونا من البشر ولن ندع مصيرنا الا في أيدينا . إن من حق السودانيين علينا أن يختاروا لأنفسهم نظام الحكم الذي يرتضونه ، من حق السودانيين أن يختاروا بين أن يسرى عليهم دستورنا فيبعثوا بالنواب والشيوخ إلى برلماننا ويتبوأون مقاعد الوزارة الى جوار وزرائنا ويساهمون معنا في كل وظائف الدولة على السواء ، من حقهم أن يختاروا بين ذلك وبين أن تكون لهم حكومتهم الذاتية وأن يكون لهم برلمانهم وأداتهم التشريعية والتنفيذية .. ولكن الذى لا مناص منه أن نكون نحن وهم دولة واحدة ذات سيادة واحدة ذات ملك واحد وجيش واحد وسياسة خارجية واحدة .

وليس هناك ما هو أدل على ضرورة هذه الوحدة بالنسبة للسودانيين أنفسهم من قيام الوفد السوداني الذى يمثل الشعب السوداني مناديا بهذه الوحدة .. لطالما سألت الأستاذ اسماعيل الأزهري عن السبب الحقيق في مطالبة الوفد السوداني بالوحدة مع مصر فكان يقول لى : لقد عملنا المستحيل لكى نفكر في طريقة ننفصل فيها عن مصر ، سهرنا الليالي الطوال ندرس ونبحث فكنا ننتهى دائما إلى نتيجة واحدة لا ثاني لها وهى أنه

لا أمل للسودان في الحياة والحرية إلا بأن يكون متحداً مع مصر فهذا هو السبيل الوحيد للنهوض بالسودانيين وتحقيق رفاهيتهم وكرامتهم ... فليست مسألة مطالبتنا بالوحدة هي مسألة عواطف أدبية ، ولكنها مصلحة حيوية مؤكدة .

والأستاذ اسماعيل الأزهري في ذلك إنما يعبر عن السواد الأعظم من الشعب السوداني وليس هناك من دافع يدفعه لتزييف رأي السودانيين ولو لم يكن ينطق باسمهم وباحساسهم لما بقي رئيساً لوفدهم ولخلعوه من منصبه منذ أمد بعيد، ولكن الواقع غير ذلك وهو أن الوفد السوداني ورئيسه وزعيمه يزدادان في كل يوم قوة وثباتاً في السودان في الوقت الذي يتقلص فيه ظل الانفصاليين . ولقد سمعتم من غير شك تصريح حاكم السودان الأخير وكيف قام ينذر ويتحدى ويتحدث عن صيانة الأمن والبطش بكل من تحدثه نفسه بالتمرد على هذا الأمن وليس وراء ذلك دليل على أن انجلترا قد أصبحت مضطرة لاستخدام الحديد والنار في حكم السودان .

فالوحدة بين مصر والسودان مسألة لا تحتمل عندنا جدلا أو شكا ، وإنني أعلن باسم وادي النيل كله أننا سنبطش بكل من تحدثه نفسه أن يعبث بهذه الوحدة أو ينال منها .

طريقنا لتحقيق مطالبنا

والآن نصل إلى بيت القصيد من مؤتمرنا هذه الليلة وهو كيف نحقق مطالبنا القومية ، ولعل الجواب على هذا السؤال لم يعد خافيا بعد كل الذي قلته لكم الليلة وأنه يتلخص في كلمة واحدة وهي «بأيدينا» «ونحن أنفسنا» سنحقق مطالبنا بأيدينا وبجهودنا وبكفاحنا .

الاتحاد

ولعل أول ما يرد على الخاطر ونحن نتحدث عن الجهاد والكفاح هو وجوب الاتحاد ووقوف الشعب صفاً واحداً وجبهة واحدة في هذا الكفاح ... فكل خلاف معناه أن كفاحنا لن يكون ضد الغاصب بل سيكون ضد أنفسنا .. ونحن لا نعني بالاتحاد أيها السادة هذه الصورة الكريهة التي يتصورها البعض من أن نذهب لهذا الزعيم ونرجوه أن يتفق مع الزعيم الآخر فيروح يملي شروطه وهذه الشروط كلها تدور حول الحكم وطريقة الحكم ومن هو صاحب الحق في الحكم .. وعندما يكون مصير أمة في الميزان أيها السادة فإن إثارة موضوع الحكم والانتخابات يكون ضرباً من ضروب العبث لا محل لها ، فلسنا على استعداد أن نوقف المعركة التي توشك أن تبدأ بيننا وبين الانجليز والتي يجب أن تدور بكل قوة وشدة ، لسنا على استعداد لإيقاف هذه المعركة كي ننظر في شأن الكراسي ثم نتشاجر على طريقة تقسيمها وطريقة توزيعها ..

أيها السادة إن الانجليز يجب أن يجلو من مصر فورا وهذا هو الذى يجب أن نتجه له بكل عواطفنا وقوانا هذه هى القضية التى اتفقنا عليها جميعا فوجب علينا أن نبدأ بها حتى إذا فرغنا من هذه المهمة وحتى إذا طردنا الانجليز من بلادنا اتسع لدينا الوقت بعد ذلك لكى ننظم شئوننا الداخلية ... هذا هو المنطق وهذا هو الترتيب الطبيعى ...

إن حديث الانتخابات لا يجب أن يشارف الوقت الحاضر فهو العقبة الكأداء التى تقف فى وجه الاتحاد يجب أن يتم الاتحاد حول ميثاق وطنى ترتبط به كل الاحزاب ولا تخرج عنه وأن يتم الاتحاد حول الوسائل التى نحارب بها الانجليز.

هيئة اتصال الأحزاب

ولقد وصل اليكم من العلم أيها السادة نبأ هذه الهيئات والأحزاب التى اجتمعت ووضعت ميثاقا قوميا وألفت من بينها لجنة اتصال لتنظيم وسائل الجهاد .

وهذا الميثاق يصلح أن يكون أساسا لاجماع بقية الاحزاب فى البلاد فتجتمع حوله وتتحد فيما بينها لتنفيذه

هذا هو الاتحاد كما نفهمه وكل صورة من صور الاتحاد على غير هذا الشكل فهى ضد البلاد ولا يمكن أن تؤدى إلى نتيجة ولقد جربنا ذلك من قبل فى سنة ١٩٣٦ حيث اجتمع الزعماء فى جبهة واحدة غير مرتبطين بعهد أو ميثاق فكانت النتيجة أن اطمأنوا جميعا لعدم وجود معارضة لعلوا توقيع هذه المعاهدة المشئومة معاهدة الخزى والاحتلال ... لم يوجد مصرى واحد قبل سنة ١٩٣٦ كان يجرؤ على توقيع هذه المعاهدة وذلك خوفا من الامة والمعارضة الشديدة فلما اجتمع الزعماء جميعا وأمن بعضهم البعض أسرعوا إلى توقيع المعاهدة ، فنحن لا نريد اليوم اتحادا على غير ميثاق يعلن للأمة ويكون معروفا ومشهورا وينص فيه على أن كل من يخرج عليه يكون خائنا مجرما .

اتحاد الحكومة مع الشعب

واذا كان اتحاد هيئات الشعب قد أصبح واجبا كخطوة أولى من خطوات الجهاد فإن اتحاد الحكومة مع الأمة هو أوجب الواجبات فى هذه الفترة من تاريخنا .

خذوا مثلا موضوع اعلان بطلان معاهدتى سنة ١٩٣٦ و ١٨٩٩ فقد أجمع الشعب على وجوب إعلان هذا البطلان واتفقت الهيئات والاحزاب كلها على وجوب اتخاذ هذه الخطوة ومع ذلك فستبقى الحكومة المصرية والحكومة المصرية وحدها هى التى يجب أن تقوم بهذه الخطوة حتى تأخذ كل قوتها الرسمية فى العالم الدولى .

وقد أصبح لا مناص الآن من اتخاذ هذه الخطوة فوراً خاصة بعد أن أهمل مجلس الأمن القضية المصرية اذا كان لابد من تحريكها من جديد فلن تكون مصر هى التى

يحركها بل على انجلترا أن تكون الساعية لتحريكها ولا سبيل لذلك الا عند ما تجابة باعلان بطلان معاهدتى سنة ١٩٣٦ و ١٨٩٩ حيث ترى نفسها فجأة فى وضع شاذ غريب لا تعرف ماذا يترتب عليه . وهذا الاجراء لابد فيه من الحكومة المصرية .

قطع موارد التموين عن الجيوش البريطانيه

وثمه إجراء ثان يجب أن يتبع على الفور الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ أو يسبقه وذلك هو صدور تشريع يحظر على المصريين التعامل مع القوات البريطانية المقيمة فى منطقة قنال السويس أو مدها بأى مادة من مواد التموين . لأنه من المستحيل عقلا أن يتعاون شعب مع جيش يحتله رغم أنفه ولذلك فإن كل معاملة مع هذا الجيش أو تقديم تسهيلات له فضلا عن مده بالغذاء هو بمثابة خيانة وطنية كبرى ونحن فى هذا السبيل لن ننتظر تشريع الحكومة ، فإن ذلك من الاجراءات التى يستطيع أن يبدأها الشعب وأن يبدأها فوراً . إن هؤلاء المتعهدين الذين يمدون الجيش البريطانى بالمواد والأغذية يجب أن يكفوا وأن يكفوا من تلقاء أنفسهم لأن الشعب لن يسمح لهم أن يستمروا طويلا فى تدعيم جيوش الاحتلال

المقاطعة الاقتصادية

على أن السلاح الرهيب الذى يجب أن نبادر فنشهره فى وجه انجلترا هو سلاح المقاطعة الاقتصادية ... وليس هناك ما يرهبه الانجليز اليوم اشد من الحرب الاقتصادية . إن الانجليز أيها السادة قد لا يخشون أن نعلن عليهم حربا بالسلاح لأنهم واثقون من قدرتهم على التغلب علينا ولكن الذى يخشاه الانجليز وخاصة فى هذه الأوقات هو المقاطعة الاقتصادية .

فلا شك أنكم تدركون مقدار ما تعانيه انجلترا من أزمة اقتصادية قاتلة هذه الأيام بحيث لا أمل لها أن تواصل الاحتفاظ بمكانتها كدولة كبرى إلا إذا وجدت الأسواق مفتوحة أمامها لبضائعها ، فإذا قاطعتها مصر وتبعتها سائر البلاد العربية فإن انجلترا لا يسعها إلا أن تستسلم لمشيئة مصر التى هى مشيئة الحق والعدل .

المقاطعة التى نريدها ليست مجرد مظاهرة كما اعتدنا فعل ذلك فى القديم ، ولكنها مقاطعة فعالة يجب أن تتم بقوانين مانعة وأن تعمل الدولة على الحصول على كل السلع التى ستوردها من انجلترا من الدول الأخرى وأن تكون روسيا بطبيعة الحال هى الدولة التى نتجه اليها للتعويض بوارداتها عما قد ينقصنا نتيجة مقاطعة انجلترا .

تقوية الجيش المصرى

على أن المقاطعة السلبية لن تغنينا عن العمل الإيجابى فى الوقت المناسب بل قد يترتب على الإجراءات السابقة أن تفكر أنجلترا فى التحرش بنا والاعتداء علينا ، ولذلك فإنه

يجب أن نبادر بتقوية الجيش المصرى ونجعله على أهبة الاستعداد ويجب أن نتجه صوب روسيا لتمدنا بالسلاح والذخائر التى تنقصنا . ويجب أن يوضع الشعب كله منذ الآن فى حالة تأهب عسكرى فيكون فى كل مدينة ميدان للتدريب العسكرى وان يستدعى للخدمة العسكرية كل من ينطبق عليهم قانون التجنيد الاجبارى وان يزودوا بالسلاح اللازم للقتال

المقاطعة الأدبية

ويجب أن نقاطع كل علاقة أدبية أو سياسية مع انجلترا بما فى ذلك قطع العلاقات السياسية بيننا وبينها ويجب أن نحارب الثقافة الانجليزية بكافة أشكالها ومظاهرها فى مصر "

لقد خطبت فى مدينة الأسكندرية فقلت تصريحا أحدث ضجة كبيرة وحملة شديدة من النقد فى صحف انجلترا وفرنسا وامريكا، وانى أريد أن أعلن الليلة أننى أشد إصرارا من أى وقت مضى على هذا الذى قلته فى مدينة الاسكندرية ، لقد ناديت بوجوب إلغاء اللغة الانجليزية والفرنسية من مدارسنا لإنه من العبث أن نعلم أولادنا ثقافة أعدائنا ولغة اعدائنا فإذا قال قائل ولكننا فى حاجة الى تعليم اللغات الاجنبية لكى ننقل بها العلوم الحديثة الى لغتنا ولكى نصاحب التطور العالمى قلت له إن فى اللغة الالمانية والروسية غناء عن هاتين اللغتين .

فليس هناك من ينكر ان اللغة الألمانية هى لغة العلم بل إن علماء الانجليز والفرنسيين والامريكيين لا يصدق عليهم وصف العلم الا اذا حذقوا اللغة الالمانية فمن طريق الالمانية نستطيع أن نحيط بكل أدب الدنيا وثقافتها وعلومها ولما كنا ندعو الى مضاعفة التعامل والتعاون مع روسيا فقد بات لزاما علينا أن نعرف اللغة الروسية لنحقق هذا التعاون

ولا ينبغى ان نلوم انجلترا وامريكا الا نفسيهما اذا نحن اتجهنا هذا الاتجاه فقد صممنا ان نعيش أحرارا وان لا نسمح لأى قوة أن تحتل بلادنا ونحن معتزمون ان نلجأ الى كل الوسائل التى تحقق لنا هذه الغاية ..

ونحن نشكر انجلترا إذ علمتنا هذا الدرس فى الحرب الأخيرة ، فلقد سمعنا تشرشل يقول بأعلى صوته إنه على استعداد أن يحالف الشيطان لكى يهزم هتلر أما نحن فلن نحالف الشياطين لكى نهزم عدونا ولكنا سنحالف روسيا الدولة التى وقفت من تلقاء نفسها الى جوارنا وناصرتنا .

(برنامج مصر الفتاة)

وبعد أيها السادة فسوف يجلو الانجليز عن وادي النيل مافى ذلك شك أو ريب واذا كنا اليوم نجتمع هنا فى ثكنات قصر النيل بعد احتلالها خمس وستين سنة لكى نعلن

فيها الحرب على انجلترا فانى أؤكد لكم أنه لن يمضى عامٌ منذ اليوم حتى نجتمع فى فايد والاسماعيلية مثل اجتماعنا الليلة ولن يمضى عام آخر حتى نجتمع فى الخرطوم وعندما يتحرر وادى النيل نهائيا تبدأ مهمة مصر الفتاة الحقيقية . . . فنحن أيها السادة وقد زاولنا منذ اللحظة الأولى بالجد لمصر فانما يبدأ برنامجنا الحقيقى بعد الانتهاء من معركة الحرية والاستقلال عندما نعمد الى رفع مستوى طبقات الشعب المصري الكادحة فنحن لا ننظر الى الاستقلال ولا ننظر الى الحرية إلا باعتبارها وسيلة لرفع مستوى الشعب المصرى فهذا الفقر المدقع يجب أن يزول نهائيا يجب أن تهيأ الفرصة لكل مصري لكى يتعلم حتى آخر درجات التعليم ويجب أن يؤمن كل مصري على معاشه وعلى صحته. إننا نؤمن أيها السادة أن هناك حدا أدنى للمعيشة يجب أن يهيأ لكل إنسان مهما صغر أمره، ونحن نعتبر الكفاح للوصول لتحقيق هذا المستوى هو المعركة الحقيقية التى تنتظرنا . إن كل بيت فى مصر يجب أن يكون مزودا بالماء والكهرباء والراديو ويجب أن يكون لدى كل أسرة سيارة ، وأن تهيأ فرصة متساوية لكل مواطن لكى يتعلم ويرقى ويشق طريقه إلى أعلى الدرجات هذا هو برنامجنا فى الداخل وهو يستلزم أن نحول مصر إلى دولة صناعية وأن نجعل من البلاد العربية كلها دولة عربية متحدة على غرار الولايات الامريكية المتحدة ، وذلك لنكون سوقا واحدا وميدانا واحدا للانتاج والاستهلاك .

وقد آلينا على أنفسنا أن لا نضع السلاح مابقى هناك شبر من البلاد العربية أو الاسلامية رهن القيود أو الاستعمار أو حليف الفقر والجهل والمرض ... وغايتنا النهائية أن نجعل من مصر منارة العالمين كما كانت فى القديم تحمل لواء الاسلام والأخوة البشرية التى لا تفرق بين دين ودين أو بين جنس وجنس أو بين لون ولون .

سيقول قائل وهو يسمع هذا الملخص لبرنامجنا إنها أحلام وخيالات ولكنى أستطيع أن أؤكد لكم أنكم ستشهدون بأعينكم تحقق هذا الذى تظنونه حلما أو خيالا .

أما نحن أيها السادة فسوف نمضى قدما لتحقيق هذا البرنامج لا يخيفنا وعد أو وعيد ولا يقعد بنا اضطهاد أو تنكيل حتى يتحقق هذا البرنامج أو نهلك دونه ... وهذا عهد الله على أن أعيش طول عمرى مجاهداً وأن يكون أقصى أملى فى هذه الدنيا أن أريق آخر قطرة من دمى فى سبيل مجد مصر والعرب والمسلمين .

******

المبادئ العشرة

١ لا تتحدث إلا باللغة العربية ولا تستعمل داخل الوطن إلا بها وقاطع كل من يحاول التحدث بغيرها

٢ لا تشتر إلا من مصري ولا تلبس إلا ما صنع في مصر ولا تأكل إلا طعاماً مصرياً فإن لم تجد فعربياً

٣ اعمل ثم اعمل واعمل دائماً .. واعلم أن الوطن لن يستفيد من عملك إلا إذا كان متقناً

٤ تطهر وصل لربك وأم المسجد يوم الجمعة إن كنت مسلماً والكنيسة يوم الأحد إن كنت مسيحياً

٥ قاطع الخمور ودور اللهو الحرام وكافة الموبقات ..

٦ كن إنساناً كاملاً صادقاً في كل قولك وفعلك واعلم أن الصراحة هي آية الرجولة الكاملة

٧ أحب أخاك المصري دائماً وكن مستعداً في كل وقت لنسيان إساءته لك واذكر دائماً أن
المنازعات والخلافات الشخصية هي مصدر كل ما نعانيه من شرور وويلات ..

٨ احرص على الحرية أكثر من حرصك على الحياة لأنها آية الكرامة الإنسانية ولا معنى للحياة بغير حرية

٩ بلادك هي مصر والسودان لا ينفصلان ولا يتجزآن، ووطنك هو البلاد العربية كلها
والأمة الإسلامية أمتك ..

١٠ وغايتك أن تحرر وطنك من العبودية والفقر والجهل لتصبح مصر منارة تضيء الشرق
والغرب بالمعرفة والإيمان وتعيد مجد العرب والإسلام ..